المرأة في حياة شاعر

بقلم انور المعداوي

عندما نتحدث عن المرأة في حياة هذا الشاعر المصري ، تعترض انظارنا لافتة من تلك اللافتات « المضيئة » التي تنتثر على جوانب الحياة وكأنها تقول للدارسين : من هنا الطريق.. هذه اللافتة المضيئة يحملها بيتان من الشعر قد اختتمت بهما اول قصيدة من ديوان « الشوق العائد » عنوانها « سؤال وجواب » :

فقالت ما حياتك قلت حلم ... من الأشواق أوثر أن أطيله
حياتي قصة بدأت بكأس ... لها غنيت ، وامرأة جميله

بيتان من الشعر يلخصان قصة العمر ، ويقدمان هذا التلخيص تقديماً أميناً صادقاً لا كذب فيه .. نعم ، لقد كانت المرأة هي البداية الحقيقية لتلك القصة إذا وُزنت القصص بما فيها من فصول باسمة وصفحات مشرقة ، وان علي طه لواحد ممن يؤرخون الحياة من نقطة بدء شعورية عمادها تلك الفصول والصفحات .

لقد خلت حياته في اول العهد بالشباب من المرأة ؛ نعني انها خلت من الجسد الانثوي حتى بدت في رؤية العين وإحساس القلب وهي حيرة باقية ، وهي قلق دائم ، وهي فراغ متصل اشبه بفراغ الصحراء التي لا ظل فيها ولا ماء .. ان حياة القفر واليباب يجب ان تسقط من الحساب ، ولهذا اسقط علي طه فترة الشباب الاولى من حساب العمر وكأنها لم تكن في عداد السنين والايام ! كانت « هزات » القلق في تلك الفترة هي الهزات الوحيدة التي سجلها « مرصد » الشعور وهو يشير الى « ظاهرة » نفسية ، ويحدد مركز « الزلزلة » تحديداً دقيقاً لا انحراف فيه .. هذه الظاهرة النفسية ونعني بها « القلق » حين يرد الى اسبابه ودواعيه ، قد عرضنا لها في الصفحة الحادية عشرة بعد المائة من كتاب « النماذج » ونحن ندرس شخصية ابي العلاء في ضوء تفسير جديد ؛ هناك حيث انتهينا من الطواف حول حقيقته الفكرية والانسانية الى هذا الرأي الاخير :

« هذا القلق هو الظاهرة الكبرى في حياة أبي العلاء ، فاذا اراد الدراسون ان يقفوا آثارة ليصلوا الى أسبابه فليس امامهم غير حقيقة واحدة هي ان الذبذبة الفكرية ما هي الا انعكاس مباشر للذبذبة النفسية ؛ وهذه هي المرحلة الثانية التي تدفع بهم الى الباب الأخير ليفتح على مصراعيه ... ولنا بعد ذلك ان نسأل : ما هو المفتاح الاصيل الذي نعالج به هذا الباب لنضع أيدينا على سر تلك الذبذبة التي وجهت العقلية العلائية هذه الوجهة التي لا تطمئن الى رأي ولا تستقر على حال ؟ أهو العمى ؟ أهو تلك الآفة التي أصيب بها وحرمته نعمة الضياء ؟ ان العمى قد يبعث على الألم ، وقد يدفع الى الشكوى ، وقد يحض على التشاؤم وبغض الحياة .. ولكن اذا مال الباحثون الى الاخذ بهذا التفسير الذي يلتمس في الآفة الجسمية سر النظرة الى الحياة فهو تفسير غير مقبول ، فما اكثر المكفوفين الذين امتلأت حياتهم بالنور ، وامتلأت نفوسهم بالرضى ، ونظروا الى الدنيا من خلال منظار ابيض يحيل الدمعة في عيونهم فرحة وابتسامة. وما اكثر المبصرين الذين نظروا الى الدنيا من خلال منظار اسود فقضوا كل ايام الحياة وهم يتخبطون في الظلام !

ليست الآفة الجسمية اذن هي مصدر هذا القلق الذي أقض مضاجع الفكر في شخصية ابي العلاء ، ولكنه فيما نعتقد شيء آخر نفسر في ضوئه المشكلة دون ان نحمل النفسية العلائية ما لا تطيق .. اذن لو رحت تبحث عن سر القلق والاطمئنان في كل شخصية انسانية لما وجدته ممثلاً الا في كلمتين هما : فراغ الحياة وامتلاء الحياة ! نعم وهذا هو المفتاح ؛ المفتاح النفسي البسيط الذي لا غموض فيه ولا تعقيد .. ولو فرغت الحياة عند المبصر وغير المبصر لغدت في رأي الشعور وهي مأساة تحفل باللوعة والالم والعذاب ، ولغدا الفكر الثابت المستقر وهو نهب لزلزلة العواصف والاعاصير . ولو امتلأت الحياة عند المبصر وغير المبصر لأصبحت في رأي الشعور أملاً كبيراً تتبجر تحت اشعته المنوهجة قطرات الهم والاسى وتفر اشباح الحرمان ! الفراغ في حياة ابي العلاء ولا شيء غير الفراغ ؛ وعلى هديه نلتمس العلة الاصيلة لتلك الذبذبة النفسية ممثلة في هذه الذبذبة الفكرية.. ولنا بعد ذلك ان نسأل : اي لون من ألوان الفراغ كان يشكو ابو العلاء ؟ انها ثلاثة ألوان : فراغ النفس ، وفراغ القلب ، وفراغ الجسد ، ولك ان تردها جميعاً الى الحرمان ، فنفس ابي العلاء كانت تشكو الحرمان من العطف ، وقلب ابي العلاء كان يشكو الحرمان من العاطفة ، وجسد ابي العلاء كان يشكو الحرمان من المرأة.. وقف طويلاً عند هذا الحرمان الاخير فهو مصدر الحرمان كله ، ومركز الفراغ كله ، وعلة هذا القلق الذي عصف بشعور الرجل وفكره على حد سواء !

هذا الجدب العاطفي في القلب الانساني ، وهذا الكبت الطويل العنيف للغريزة الجنسية ، هما في رأينا — ولا شيء غيرهما — مركبا النقص الخطيران في شخصية ابي العلاء ، ولا حاجة بنا الى الحديث عن مركب النقص واثره في توجيه المشاعر والافكار» !

« هكذا كان علي محمود طه في حياته ، وهكذا كان في شعره : لا تفرقة بين تذوّق اللذة وبين تذوّق الجمال ، ولا فصل بينهما في عالم الشعور او في كل عالم منظور . . . لقد عشق في المرأة صورة الجسد « اللذيذ » وعشق في الجسد اللذيذ صورة المعنى « الجميل » ، ومن هنا امتزج الاحساسان في نفسه ، حتى لقد أصبحا وحدة متماسكة ليس الى تجزئتها من سبيل ! إن فيه « الرجل » الذي أقبل على المادة ، والى جانبه « الشاعر » الذي أقبل على الروح ، وهما لونان من الحب بينهما من القرب ما يلغي الفواصل ولا يعترف بالأبعاد !»

هنا في هذه الكلمات ، ومن وراء هذا التحليل النفسي لظاهرة القلق في حياة ابي العلاء ، تبدو الحقيقة الكبرى التي تقدم اليك شخصية علي طه القلقة الحائرة ، يوم ان خلت حياته من الجسد الانثوي فخلت بذلك من كل سكينة واستقرار .. وهنا في هذه الكلمات ، تستطيع ان تفسر اتجاه الخطوط في تلك الصورة التعبيرية التي رسمناها لتلك الحياة ونحن نقول : لقد كانت هزات القلق في تلك الفترة هي الهزات الوحيدة التي سجلها مرصد الشعور وهو يشير الى ظاهرة نفسية ، ويحدد مركز الزلزلة تحديداً دقيقاً لا انحراف فيه !

لم يكن للجسد الأنثوي في فترة شبابه الأولى وجود ، او قل انه الوجود الذي يشبه العدم في حساب الظمأ المشبوب ؛ الظمأ الذي لم تكن لتطفىء اواره قطرة من الماء او قطرات .. لقد كان الشباب المصريون في الربع الاول من القرن العشرين ومنهم علي طه ، يغلب عليهم الحياء والانطواء والميل الى العزلة والولع بالخيال ، وبهذه الاسلحة التي لا تقطع ولا تدفع كانوا يواجهون الواقع في معركة الحياة . وما اكثر ما كان الواقع يصدمهم بمرارته ويلفح شعورهم بقسوته ، فيرتدون عقب كل جولة من جولات النضال ونفوسهم مثخنة بالجراح .. كان الخيال يحول بين نوازعهم الوقادة وبين متعة الانطلاق ، وكان الانطواء يحول بين عواطفهم الجياشة وبين نعمة التحرر ، وكانت العزلة تحول بين رغائبهم الوثابة وبين فرصة الظهور ، ومن هنا وجد ذلك المزاج القاتم وذلك الطبع الحزين ، نتيجة لتلك الحياة التي كانت تحيط بهم وهي خالية من افراح النفس ومباهج الروح واعياد الشعور ! واذا اردت ان تبحث عن مقومات ذلك المزاج المنقبض فارجع الى البيئة المعنوية فهي المسؤولة عن صنع ذلك المزاج .. لقد كانت بيئة الشباب في محيط الاسرة والمدرسة والمجتمع تبعث على الانطواء وتدعو الى التكبيل بكل قيد من القيود ؛ فالتقاليد الموروثة تفرض فرضاً على الشباب بما فيها من نظم عتيقة واساليب صارمة ، وكل عبث بتلك التقاليد فهو عبث بقواعد الشريعة والعرف والآداب والاذواق ، حتى اذا خطر للشباب شيء من التجديد في وسائل العيش ومظاهر الزي وطرائق التفكير ، كان ذلك في رأي القائمين على امرهم خروجاً على النظام وثورة على الاحتشام ، واندفاعاً الى هاوية الغي والفساد وانحرافاً عن معاني الفضيلة ومناهج الاخلاق !

من هنا انعدم الاتصال الكامل بين الرجل والمرأة ، حين وقفت التقاليد الموروثة وبقايا الحجاب الصفيق سداً هائلا وجداراً منيعاً بين الشباب من الجنسين .. وحرمان البيئة من المرأة وهي بهجة الحياة الكبرى ونبعها الدافق باللذة والجمال والحب ، كان له ابعد الاثر في خلق الرومانسية الوجودية والفنية في حياة علي طه الاولى وإنتاجه الاول ، وكانت مصدراً عميقاً من مصادر القلق الدفين والأسى الملحّ والشكاة التي تعلن عن نفسها في كثير من شعر ديوانه « الملاح التائه » ! كل ما كان يستطيعه الشباب في ذلك الحين هو ذلك الحب الذي يختلس الموعد « البريء » في غفلة من اعين الرقباء ، ثم لا يتطلع من وراء ذلك الى ما يتطلع اليه حب الشباب « المتحررين » في هذه الايام .. لهذا كله تذوق شباب الامس طعم السهد ، وعرفوا حرقة الوجد ، وألفت حياتهم حديث الدموع ، وبخاصة اولئك الذين بعدوا بحكم النشأة كشاعرنا عن حياة المدن الكبرى وعاشوا في ربوع الريف ؛ هناك حيث كان التحرر من اسر التقاليد ميسوراً في « بعض » الاحيان ، وهنا حيث وقف الشباب من تلك التقاليد موقف السجين من صلابة القضبان !

في ذلك الجو الريفي نشأ علي طه خاضعاً لعاداته مكبلا بقيوده فلم يعرف المرأة عن طريق آخر غير هذا الطريق الذي وصفناه .. كان حبه هو ذلك الحب « الروحي » الذي يقتصر في الاعم الاغلب على امرأة واحدة ، ثم لا يكاد يتعداها الى غيرها من النساء ! وكان هذا من اثر البيئة « المتحفظة » التي تضيق امام تحفظها سبل التعدد والاكثار .. هكذا كان حبه ، ومثل هذا اللون من الحب تطالعك منه اللهفة كما يطالعك العذاب ، ومصدر الشعورين شعور ثالث هو الاشفاق .. ان المحب الذي لا يعرف غير امرأة واحدة اشبه بالرجل الذي لا يملك غير حجرة واحدة ، هي بالنسبة اليه كل الملجأ او كل الملاذ ؛ فاذا فقدها فقد معها الامل في العثور على مأوى جديد ، يقيه ذل الشعور بانه منبوذ طريد ! من هنا تنبت اللهفة على الشيء المملوك وليس في الحوزة سواه ، حين يخطر في الظن انه عرضة للضياع وان الحرص عليه لا ينجيه من قدر مكتوب .. ومن هنا ايضاً ينبع العذاب ومبعث الشعورين كما قلنا هو الاشفاق ! وما هكذا تجد الحب « الجسدي » الذي يتخطى مرحلة « التوحيد » الى تلك المرحلة الاخرى التي يلوذ فيها باكثر من شريك .. هذا الحب الجسدي « المشرك » قلما تعثر فيه على المحب الذي يلوعه الهجر حين يجيء في اعقابه الحرمان ، لان المائدة عنده لا تقتصر على الصنف

الواحد حتى يشفق من الجوع ، او لان البيت عنده لا يحوي الحجرة الواحدة حتى يشفق من التشرد والهوان !

لقد كان علي طه في حبه الروحي الاول مثال الرجل الذي لم يلق على المائدة غير صنف واحد من الطعام ، او الرجل الذي لم يكن له من مأوى في الحياة غير حجرة واحدة . وكان في حبه الجسدي الاخير مثال الرجل الذي جلس الى المائدة الحافلة او الرجل الذي تنقل في البيت الكبير بين شتى الحجرات .. عذاب ولهفة وإشفاق تطوى على صورها صفحة وتفتح صفحة ، وفي الصفحة المفتوحة صور اخرى فيها الهدوء للحس الفائر والسكينة للفكر القلق والحرية للشعور المكبوت ! صفحتان او قل انهما رحلتان مرت الاولى وكأن لم يكن للمرأة فيها وجود لانها كانت اشبه بطيف من الاطياف التي تعز على التجربة الحسية وإن بصرت بها العيون . وانقضت الثانية والمرأة فيها هي الساحة الكبرى التي تنطلق من ارجائها تجارب الحس والنفس وتنبعث من اعماقها فورة الشعور بالدنيا على اوسع نطاق ! وتعال بعد ذلك نستعرض في تلك المرحلة الاولى بعض المشاهد من ذلك الحب الروحي اليائس ، يوم ان كانت المرأة طيفاً يُلمح ولا يُلمس او املا يرتجى ولا ينال ، وها هو شاعرنا في الصفحة السبعين بعد المائة من « الملاح التائه » ينتظر طيفه الذي لم يكن يجرؤ على الظهور في وضح النهار :

طال انتظارك في الظلام ولم تزل ... عيناي ترقب كل طيف عابر
ويطير سمعي صوب كل مرنة ... في الافق تخفق عن جناحي طائر
وترف روحي فوق انفاس الربى ... فلعلها نفس الحبيب الزائر
ويخف قلبي إثر كل شعاعة ... في الليل تومض عن شهاب غائر
فلعل من لمحات ثغرك بارقاً ... ولعله وضح الجبين الناضر
ليل من الاوهام طال سهاده ... بين الجوى المضني وهجس الخاطر
حتى اذا هتفت بقدمك المنى ... وأصخت استرعي انتباهة حائر
ومضت تكذبني الظنون فأنثني ... متسمعاً دقات قلبي الثائر
اقبلت بالبسمات تملأ خاطري ... سحراً واملأ من جمالك ناظري

*

بدلت من عطف عليك ورفة ... بجفين مهجور وقسوة هاجر
وكأنني ما كنت إلفك في الصبا ... يوماً ولا كنت الحياة مشاطري

هنا اللهفة التي تترقب الحبيب القادم وهي في قبضة الشكوك والاوهام ، وهنا الولوعة التي تنظر الى اللقاء العابر وكأنه حلم من الاحلام ، وهنا الحيرة التي تعقب الوداع وتشفق من المستقبل وهو رهين الغد المجهول .. هنا هذه الهزات العنيفة التي تتعرض لها النفس وهي تحرص على الشيء الوحيد الذي تملكه وتخشى ان يضيع ، حتى اذا ضاع اشعرتها مرارة الفقد بانها لم تملك من قبل شيئاً وبان الحياة منذ بدئها متصلة الفراغ ! شعور طبيعي عند اصحاب الهوى الروحي الذي يقتصر على امرأة واحدة ؛ عند هؤلاء الذين يملكون النزر اليسير يبدو مع العوز انه كثير ، حتى اذا سُلبوه صحوا من وهم الخيال على حقيقة الواقع ، وادركوا انهم كانوا على مدار الزمن فقراء ... حقيقة نفسية تكمن وراء هذه الابيات التي نقتطفها من الصفحة السادسة والخمسين من « الملاح التائه » ؛ هناك حيث يخاطب الشاعر قلبه الجريح :

وصحوت من وهم ومن خبل ... فاذا جراحك كامن دم
لجت عليك مرارة الفشل ... ومشى يحز وتينك الألم !
والارض ضاق فضاؤها الرحب ... وحلت فلا اهل ولا سكن
حال الهوى وتفرق الصحب ... وبقيت وحدك انت والزمن!
وصرخت حين اجنك الليل ... متمرداً تجتاحك النار
وبدا صراعك انت والعقل ... ولأنت بحر وإعصار !

هذه هي الصحوة ؛ صحوة القلب من ضلال طويل الامد في سبيل حب يائس لا امل فيه . قل انها صحوة المهزوم حين نتمثل علي طه في صورة المحارب الذي دخل المعركة ليقتحم حصناً من الحصون ؛ حصناً كم تذرع ليصل اليه بالصبر وكم تعلق بالوهم وكم تشبث بالرجاء ، حتى اذا تكسرت اسلحته بين يديه صحا على وخز الجراح وادرك ان الامنية تعز على الدارعين ! قل انها صحوة المهزوم على هذا الاساس وقل على اساس آخر انها صحوة المخمور ، حين يتخلص من أثر الكأس التي لعبت برأسه وخدرت إحساسه وخدعت رؤية العين حيال الواقع المشهود ... ما كان اشبه علي طه بذلك الذي شرب فتمثل فتعددت امام ناظريه صور المشاهد والمرئيات : يكون الشيء واحداً فيظنه شيئين ، ويكون الشخص واحداً فيخاله شخصين ، وتكون الحانة خاوية فاذا هي في لقطة البصر الواهم مزدحمة بالسمار ! كانت حاله هي حال من تجرع كؤوس الخمر متتابعة حتى ذهل عن حقيقة نفسه وحقيقة وجوده ، فلما أفاق ، وجد الحياة من حوله وهي في صورتها الصادقة التي لا وهم فيها ولا خداع .. وجدها الصحراء القاحلة التي لا تتعدد فيها المشاهد ، وجدها الحانة الخاوية التي ليس بها من سمير ، وجدها السكون الممل الذي تضل فيه امانيه بين متاهات الفراغ !

مرحلة نفسية تقبل بعدها مرحلة اخرى فيها السخط الذي يخلف الرضا وفيها التمرد الذي يعقب الخضوع ، لأن العقل قد استيقظ من سبات طويل تعرض فيه لخوادع الأحلام .. أرأيت الى المريض الذي طال مرضه حين يفزع الى العقار يلتمس فيه

« البقية على الصفحة ٤٣ »